البعد اللساني التربوي في المنظومات الخديمية – "سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب" نموذجا

بقلم الباحث: باي سرين انجاي[289]

مقدمة

يُعدّ تأليف المتون والمنظومات النحوية من قِبل النحاة واللغويين من الأعمال التي اهتمت بقضية تعليم النحو وتيسيره على المتعلمين؛ مما يدل على وعي الدارسين بضرورة وجود مستوى من المؤلفات النحوية المختصرة والميسرة تناسب النشء من الطلاب، وقد أثبتت بعض الدراسات التحليلية النقدية لكثير من هذه المتون والمختصرات أنها تحتوي على مجموعة من المبادئ اللسانية التربوية التي يمكن الإفادة منها في بناء مناهج التعليم العام والجامعي، ومن هذه المبادئ: انتقاء الموضوعات، والتدرج في عرضها، وترتيبها، والوضوح في عناصرها، وتهذيب قضاياها. هذا، ومن أهم الأفكار التي اهتمت بجانب أو جوانب من اللسانيات التربوية، تلك الأفكار المُثْبَتة في الفكر اللساني من التراث السنغالي، وتتعلق بتعليمية اللغة العربية عامة، وتعليمية النحو خاصة.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد اللسانية والتربوية التي تأسست عليها منظومة سعادة الطلاب، وإبراز قيمتها المعرفية والمنهجية والتربوية، بالإشارة إلى كيفية الإفادة منها في بناء المناهج الدراسية؛ من أجل ذلك نقدم في هذه الورقة البحثية قراءة تحليلية في منظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم من خلال إبراز إشكالية البحث بطرح الأسئلة الآتية:

- ما الهدف من تأليف المنظومة؟
- ما هي الأبعاد اللسانية التربوية الموجودة في منظومة سعادة الطلاب؟
- ما هي المناهج اللسانية التربوية التي اعتمدها المؤلف في منظومته؟

واتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي هو المنهج الأنسب لعرض إشكالية البحث.

1- الهدف من تأليف المنظومة

لقد بيّن الشيخ في مقدمة المنظومة الهدف من تأليف هذا المختصر بقوله:

وَبَعْدُ فَالْمَقْصُودُ نَظْمٌ قَدْ بَهَرْ
فِي عَقْدِ مَا الْفَتَى ابْنُ دَاوُدَ نَثَرْ
نَظَمْتُهُ ثَانِيَةً مُخْتَصِرا
لِكَيْ يَكُونَ نَافِعًا كُلَّ الْوَرَى
سَمَّيْتُهُ سَعَادَةَ الطُّلَّابِ
وَرَاحَةً لِطَالِبِ الإِعْرَابِ

ويبدو من خلال الأبيات السابقة أن سعادة الطلاب منظومة عقد بها الشيخ ما نثره ابن آجروم في كتابه المعروف المسمى بـ "المقدمة الأجرومية". فعلى هذا، فإن سعادة الطلاب مختصرٌ منظومٌ للمبتدئين، رام المؤلف من خلاله إيضاح القضايا والظواهر النحوية الأساسية دون الغوص في معضلاتها وتفاصيلها؛ مما يجعل هذا المختصر إلى جانب الإيجاز في حجمه يتميز بالبساطة والوضوح والدقة في عرض القواعد النحوية، فهو قائم على طريقة الإجمال ثم التفصيل التي اعتمدها المؤلف في جميع أبواب الكتاب لبيان وتوضيح المسائل النحوية في ذهن المتعلّم. فالكتاب يتجاوز دائرة المتعلّمين إلى المتخصصين، ولكنه كما

289 حاصل على الماجستير من جامعة محمد الخامس – الرباط.

هو واضح من عنوانه ، و مضمونه – كما سيأتي بيانه – يفيد المتعلِّم المبتدئ أكثر من المتخصّص في استيعاب علم النحو العربي. وفي قول الشيخ عن مختصره: "وراحة لطالب الإعراب" دليل على ما ذكرنا.

2- قراءة في الأبعاد اللسانية التربوية لمنظومة سعادة الطلاب

تُعدّ منظومة سعادة الطلاب من أبرز المنظومات النحوية الرامية لتسهيل القواعد النحوية ، نظمها الشيخ أحمد الخديم وهو منفي في موريتانيا ، ويبلغ عدد أبياتها حوالي ثلاثمائة وثمانية (308) أبيات ، وهي من بحر الرجز(انظر تياو ، 2009 ، 18). والكتاب كما هو واضح من عنوانه يندرج ضمن كتب النحو التعليمي التي تُعنى ببيان النحو الوظيفي النافع لتقويم اللسان والكتابة.

حَظِيت منظومة سعادة الطلاب بشرح وافٍ كافٍ للدكتور أبي مدين شعيب تياو الأزهري الطوبوي يُسمى: "فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب". يعتبر هذا الكتاب القيم مرجعا مهما للطلبة والباحثين في الحقل اللغوي وخصوصا في مجال النحو العربي في بلادنا.

ومما يبين أهمية سعادة الطلاب ، أنها لاقت رواجا كبيرا منذ تأليفها إلى عصرنا الحاضر ، أقبل عليها طلاب علم النحو في بيئة المريدين السنغاليين ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كونها منظومة موضوعة للمبتدئين ، اكتفى الشيخ فيها بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين ، لذلك أهمل العديد من الأبواب التي يرى المؤلف عدم حاجة للمبتدئين إليها مثل: باب الاختصاص وباب الحكاية والاشتغال...إضافة إلى ذلك ، فإن الشيخ قد ابتعد في منظومته عن ذكر التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تُشتِّت ذهن المتعلم بذكر المسائل النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية. ويضاف إلى ما سبق من الأسباب التي أدّت إلى رواج سعادة الطلاب أن صاحبها قد ألبسها رداء أدبيا جميلا فجاءت كلمات المنظومة واضحة ، وعباراتها سهلة بفضل حسن النظم وجودته؛ والغرض من ذلك تسهيل النحو وتعليمه وتقريبه من المتعلمين في طابع مخفف. ولعل من أسباب رواج سعادة الطلاب أنها نُظمت على بحر واحد من الرجز؛ مما يجعل نغمها الموسيقي منسجما ووزنها منقادا في نسق واحد ، فتكون خفيفة على السمع سهلة الحفظ ، "ولا شك أن الأبيات التي ليست من بحر واحد تضطرب فيها الأنغام الموسيقية وتكون ثقيلة على السمع يصعب حفظها ولا ينقاد وزنها في نسق واحد عكس الأبيات التي من بحر واحد" (انظر ممدوح ، 2000 ، 269).

وقد اخترت منظومة سعادة الطلاب لدراستها وتحليلها وفق مقاربة لسانية تربوية؛ لتكون نموذجا لتحقيق الغرض من النحو المتمثل في القدرة على القراءة والمخاطبة؛ لأن الغاية من النحو هي مخاطبة الناس وقراءة كتبهم المؤلفة حسب رأي ابن حزم (1987 ، 66) ، وهي الغاية نفسها التي توخاها الشيخ في منظومته سعادة الطلاب؛ فقد قصد إلى السهولة والوضوح واليسر في عرض أبواب النحو ومسائله على المتعلم ، ويظهر ذلك في الطريقة التعليمية التي صبغ بها منظومته ، والتي سنأتي على ذكر أبرز ملامحها لاحقا.

وقد رام الشيخ من خلال مختصره سعاة الطلاب وضع كتاب في النحو التربوي التعليمي ، يتسم بالوضوح بعيدا عن الغموض والتعقيد ، يتناسب مع المتعلمين المبتدئين. وبالتالي ، يمكننا اعتبار سعادة الطلاب نموذجا للنحو التربوي التعليمي كفيلا بتحقيق الأهداف التعليمية المتمثلة في الوصول بالمتعلم إلى

القدرة على التعبير الشفوي والكتابي. وهذا يدل على أن الشيخ يتمتّع بقدرة كبيرة على النظم ، مكنته من النظم في فني النحو والصرف[290] وغيرهما من فنون شتى من المعارف.

3- القيمة اللسانية التربوية للمنظومة

إن القيمة اللسانية التربوية لهذه المنظومة تكمن في المنهج العلمي الذي تبناه الناظم في معالجة قضايا النحو لغايات تعليمية من أجل تيسيره وتسهيل قواعده ، وجعلها سائغة أمام المتعلم ، عن طريق عرض مادة نحوية تتناسب مع مستوى المتعلمين المبتدئين ، تقوم أساسا على مبدإ الانتقاء من النحو الوظيفي الموضوعات التي تتسم بالفائدة العملية للمتعلم.

يمكننا أن نقول إن تأليف هذه المنظومة في هذه الفترة الزمنية يحمل دلالة واضحة على أن قضية تقريب النحو من النشء والمتعلمين تشكل قضية جوهرية منذ القديم ، هذا من جهة ، ومن زاوية أخرى فإن قضية عرض النحو عرضا جديدا مبنيا على اختيار الموضوعات الأساسية الوظيفية النافعة لتقويم اللسان والكتابة ، قضية تجاوزت اهتمام المتخصصين من النحاة إلى غيرهم من العلماء كالشيخ الخديم؛ مما يؤكد على وعي الكُتَّاب السنغاليين القدماء بهذه القضية.

4- منهجه في المنظومة

قسم الشيخ منظومته"سعادة الطلاب" إلى تسعة وعشرين بابا ، تضمنت أبواب النحو فقط ، وبهذا التقسيم لم يتبع الشيخ المنهج السائد عند عامة النحاة القدماء من تقسيم علم النحو إلى الأبواب النحوية والصرفية وتأخير أبواب الصرف على أبواب النحو ، يقول ابن جني (1954 ، 4) معلّلا ذلك: "لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره" ، ولكن الشيخ تناول الجانب النحوي فقط في منظومته؛ لأن هذا المنهج ينطبق على مرحلة تكوين علم الصرف واكتماله وانفصاله مع علم النحو وانتقال تسميته في كثير من المصنفات إلى علم التصريف.وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج أي عدم عرض المؤلف لموضوعات الصرف في سعادة الطلاب؛ حتى يكون الارتياض على موضوعات النحو سهلا للمتعلم المبتدئ وممهدا له للدخول في فن علم الصرف. وقد بدأ الشيخ منظومته بمقدمة عددها تسعة أبيات ، وختمها بخاتمة عددها ثلاثة أبيات وبين المقدمة والخاتمة عرض أبواب النحو ، وينقسم الأبواب النحوية بدورها إلى قسمين:

القسم الأول: المقدمات النحوية ، وهي عبارة عن أحكام تتناول اللفظ قبل وروده في التركيب ، أتى بها الشيخ تمهيدا للحديث عن الأحكام التركيبية ، وتتكون المقدمات النحوية من أربعة أبوب ، وهي الكلام وما يتألف منه ، الإعراب ، علامات الإعراب ، المعربات.

القسم الثاني: الأحكام النحوية التفصيلية ، وهي التي تخص الكلمة حال تركيبها في السلسة الكلامية ، وينقسم هذا الجزء إلى خمسة أقسام:

1- أحكام الجملة الفعلية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تكلم عن الأبواب التي تتعلق بالمسند إليه في الجملة الفعلية ، مثل باب الفاعل وباب نائب الفاعل ، ثم ذكر أبواب المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه

([290]) فيما يتعلق بعلم الصرف ، قام الشيخ بوضع تعليقات على كتاب "نزهة الظريف وبغية المولع بالتصريف" للعلامة أدييج بن عبد الله الكمليلي الشنقيطي.
[غير سديد عندي أن يُستدل بالشرح على التمكن من النظم ، يرجى إعادة النظر في هذا].

(ظرفي الزمان والمكان) والمفعول من أجله والمفعول معه وباب الحال والتمييز والمستثنى.

2- أحكام الجملة الاسمية وما يتصل بها: وفي هذا القسم تحدث عن باب المبتدإ والخبر وأبواب العوامل الداخلة على المبتدإ والخبر وتسمى نواسخ الابتداء، وهي كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها.

3- التوابع في الجملتين الاسمية والفعلية: بعد فراغ الشيخ من الحديث عن الجملة الفعلية والجملة الاسمية، ذكر ما يكون تابعا لهما في الإعراب، وهو باب النعت والعطف والتوكيد والبدل.

4- أحكام خاصة بالفعل: وفي هذا الجزء تحدث الشيخ عن باب الأفعال، حيث ذكر أنواع الفعل وإعرابه والأحكام المتعلقة به وعوامل النصب والجزم.

5- أساليب نحوية متنوعة: ذكر في هذا القسم باب المنادى دون الخوض في الحديث عن الأساليب الأخرى، مثل الاستغاثة والندبة والترخيم والاختصاص والتحذير والإغراء... لكون أسلوب النداء يتسم بالسهولة لدى المتعلّم ويبتعد عن التعقيد.

نوّع الشيخ في كيفية عرض المادة النحوية على المتعلم في منظومته؛ فاستخدم عدة طرق ومن ذلك استخدامه **للطريقة الاستنباطية (الاستقرائية)** طريقة "الأمثلة ثم القاعدة" التي تُعد من جملة المبادئ اللسانية التربوية. وهي طريقة قائمة على جهد المعلم في عرض الأمثلة ونشاط المتعلم وفاعليته في المشاركة في استنباط القاعدة من الأمثلة، فينتقل التلميذ من الجزئيات إلى الكليات ومن القضايا الخاصة إلى القضايا العامة، وتظهر الفائدة التربوية لهذه الطريقة بكونها تسهم في تكوين إدراك المتعلم؛ لأنه يسلك طريقة تمكنه من الوصول إلى القانون العام بنفسه.

ومعنى ذلك أن الشيخ بنى منظومته على الجزئيات سعيا للوصول إلى الكليات؛ فلم يدرس الجملة الاسمية في إطارها الكلي، وإنما درس جزئياتها كباب المبتدإ والخبر، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجملة الفعلية، حيث سعى في دراسة جزئياتها أيضا مثل باب الفاعل ونائب الفاعل وباب المفعول وأنواعه وباب الحال والتمييز...؛ لغرض الوصول بالمتعلم إلى إدراك الكليات النحوية انطلاقا من الجزئيات؛ لأن هذه الطريقة تساعد المتعلم على الترتيب الذهني لكونها طريقة قائمة على الترابط بين الأبواب النحوية.

إضافة إلى الطريقة الاستقرائية اعتمد الشيخ في سعادة الطلاب على **الطريقة القياسية** بنسبة كبيرة، وهي طريقة تقوم على إعطاء القاعدة ثم الأمثلة، إنها مبنية على الاستنتاج بحيث ينتقل فيها الفكر من الحقائق العامة (القاعدة) إلى الحقائق الجزئية (الأمثلة) أو بتعبير آخر من الكل إلى الجزء، والجدير بالذكر أن هذه الطريقة تنسجم مع طبيعة التفكير الإنساني القائمة على التدرج من الكيات إلى الجزئيات ومن الإجمال إلى التفصيل، ومن أمثلة هذه الطريقة قول الشيخ في باب المبتدإ والخبر:

المُبْتَدَا الاِسْمُ الذِي عَرِيَ عَنْ
عَوَامِلٍ لفْظِيَّةٍ حيث يَعِنْ
مُرْتَفِعًا كَاللّهُ رَبُّنَا السَّمِيعْ
مُحَمّدٌ نبيُّنَا وهُوَ الشّفِيعْ

فالبيت الأول يمثل القاعدة، والبيت الثاني عبارة عن أمثلة توضح القاعدة. وهذه الطريقة هي الشائعة في أكثر المنظومات النحوية، ومنها سعادة الطلاب وألفية ابن مالك وملحة الإعراب ومقدمة الكُوكِيّ وغيرها؛ لأن كتب النحو التقليدية تتسم غالبا بتقديم القاعدة

العامة ثم تتبعها الأمثلة التي تسهم في توضيح القاعدة. وقوله أيضا في باب الكلام وما يتألف منه:

كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدْ

بِالْقَصْدِ نَحوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدْ

فالشطر الأول من البيت يحيل على القاعدة ، والشطر الثاني يشير إلى المثال الذي يوضح ويثبت القاعدة ، ومعنى ذلك أن الناظم يُقدّم للمتعلّم الدلالة الاصطلاحية لمفهوم "الكلام" ثم يُعطيه نموذجا تطبيقيا محدّدا يؤكد ملاحظاته.

عند فحصنا لمنظومة سعادة الطلاب لا حظنا أن الشيخ سلك في ترتيب موضوعاته منهجين:

المنهج الأول: منهج الانطلاق من تقديم البسيط على المعقد والسهل على الصعب ، وتبرز أهمية ملامح هذا المنهج في أن المؤلف اعتمد في عرض أبواب منظومته مبدأ التدرج فذكر بعض الموضوعات التي تبدو سهلة نوعا ما على المتعلم المبتدئ قبل الموضوعات الصعبة مثل ذكره لموضوعي"المفعول المطلق" و"الظروف" قبل موضوعات الحال والتمييز والمستثنى والمنادى؛ "لأن ترتيب الموضوعات النحوية لا يخضع لمبدإ السهولة والصعوبة فقط ، بل إن ترتيب الموضوعات النحوية يتأثر بعوامل كثيرة منها: الأهداف ومستوى المتعلمين والوقت المخصص للتعليم..." (الراجحي ، 1995 ، 61). والأهم من ذلك كله هو مقياس الأهمية والإفادة فليس كل الموضوعات المهمة الأساسية سهلة ، وكذلك ليس كل الموضوعات السهلة ضرورية ومفيدة في التعليم.

المنهج الثاني: راعى الشيخ في ترتيب موضوعات منظومته مبدأ الترابط و يظهر ذلك أنه ذكر الفعل والفاعل ، أي الجملة الفعلية ، قبل أن يتناول المبتدأ والخبر ، لأنه في حديثه عن الخبر سيعرض لأنواعه ، وهي المفرد ، الجملة الفعلية ، الجملة الاسمية ، شبه جملة ، كما يتضح ذلك أيضا في ترتيبه للتوابع بذكر النعت ثم العطف قبل حديثه عن التوكيد والبدل ، كما رتب الأبواب التي تتعلق بالأحكام النحوية ، ويوضح ذلك أنه بدأ بباب مرفوعات الأسماء ثم باب منصوبات الأسماء وأخّر باب مخفوضات الأسماء. ومن هنا يتضح لنا مدى الترابط بين موضوعات النحو في منظومة سعادة الطلاب ، هذا الترابط الذي من شأنه أن يجعل "المتعلِّم لا يحس بأي غرابة عندما ينتقل من درس إلى درس آخر ، بل أن يشعر بوجود تسلسل متماسك بين الدروس المتتالية ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان الدرس الواحد يرتبط بما قبله لما فيه من التدعيم والتثبيت للمكتسبات السابقة وبالذي يليه لما فيه من التمهيد له" (ينظر صالح ، 1974 ، 63). ولعل هذا الصنيع من الشيخ (كون موضوعات كتابه تتسم بالترابط) له فائدة تعليمية مهمة ، وهي أن المتعلم يتصور المسائل النحوية تصورا كاملا.

يتضح **الأسلوب التربوي التعليمي** في منهج المؤلف من خلال عرضه للأبواب النحوية في المنظومة ، والتي تتعلق بالهدف من النظم والمنهج في الاستشهاد وطبيعة بناء المنظومة اللغوية وأسلوب التسهيل والتيسير في النقاط الآتية:

- يسهل على المتعلم وخصوصا المبتدئ أن يستفيد استفادة مباشرة من هذه المنظومة النحوية دون الحاجة في اللجوء إلى الشرح الذي أُلِّف حوله ، وهذه هي الغاية في المنظومات النحوية أي أن تكون وسيلة تعليمية يستفيد منها المتعلم استفادة مباشرة.

- تركيز منظومة سعادة الطلاب على الحفظ والاستظهار[291] ، كما كانت ترمي أيضا إلى تدريب المتعلمين على الاستنباط والقدرة على التفكير[292].

- الإجمال ثم التفصيل؛فقد اعتمد الشيخ على هذا المبدأ في عرض مختلف القضايا النحوية التي ضمنتها منظومته ، ومن الأبواب التي تبين هذا المنهج الذي سلكه الناظم باب الكلام ، وهو الباب الأول من منظومته ، حيث قال:

كَلامُهُمْ لَفْظٌ مُرَكَّبٌ مُفِيدْ

بِالْقَصْدِ نَحوُ إِنَّ هَذَا لَسَعِيدْ

أقسامُه جيمٌ قلِ اسمٌ عنَّا

ثُمَّتَ فعلٌ ثُمّ حرفُ المَعْنَى

فهذا الذي ذكره الناظم عند تعريف الكلام وأقسامه الثلاثة: اسم وفعل وحرف معنى إجماليٌّ ، عمد إلى تفصيله في الأبيات اللاحقة؛ فذكر علامات الاسم وعلامات الفعل وتعريف الحرف وعلاماته. كما ذكر تعريف الإعراب في الباب الثاني بالمعنى الإجمالي ثم قصد إلى تفصيله بالحديث عن علاماته في الباب الثالث.

كما يظهر منهج الإجمال ثم التفصيل بوضوح في علاج القضايا النحوية؛ فنرى الشيخ في باب معرفة علامات الإعراب مثلا يجمل ذكر علامات الرفع في الضم والواو والألف والنون ، ثم يفصل في توضيح كل علامة على حدة ، كما في قوله:

لِلرَّفعِ دالٌ من علاماتٍ وفَتْ

ضمٌّ وَوَاوٌ ألِفٌ نُونٌ ثَبَتْ

- اعتمد الناظم مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة ، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

وعكس ما كانَ لِكان من عملْ

نُمِي لإنّ ولِما لها حصَلْ

فقد أحال الناظم في هذا البيت معرفة عمل إنَّ إلى عمل كان الذي ذكره من قبل ، وهذه الإحالة منه تفيد المتعلم في عدم نسيان المادة العلميّة السابقة ، التي قام بالتذكير بها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نلاحظ اعتماد مبدأ الضدية في تقرير القاعدة النحوية؛ لأن المتعلم في هذه الحال لا يحتاج إلى معرفة عمل كان وأخواتها وعمل إنَّ وأخواتها كلاً على حدة ، بل يكفيه معرفة عمل كان وأخواتها فقط لمعرفة عمل إنَّ وأخواتها.

. القصد إلى السهولة والوضوح في عرض الموضوعات النحوية؛ فإن من يقرأ منظومة سعادة الطلاب يجد نفسه أمام معلّم متمكن ، يحسن عرض موضوعاته على المتعلم ، متخذا في سبيل ذلك الأسلوب الواضح

([291]) يعد الحفظ والاستظهار من أهم الملامح التعليمية التي اعتمد عليها في تعليم اللغات قديما وحديثا سواء عند العرب أو غيرهم كاليونان والرومان... وتظهر فائدة الحفظ والاستظهار في تنمية مهارة القراءة لدى المتعلم ، ولكنه في المقابل يؤدي إلى إهمال بقية المهارات اللغوية الأخرى التي يجب على المتعلم أن يتمكن منها (مهارة الاستماع والحديث والكتابة) ، إهمال مهارات ذهنية كالاستنباط والتفكير والفهم...

([292]) وقد بين الجاحظ الطريقة التي يراها أمثل في التعليم ، وهي التي تجمع بين الاستنباط والتفكير مع عدم إهمال الحفظ ، فيقول: "وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز... ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدا ، والاستنباط هو الذي يفضي إلى يفضي إلى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود ، أي أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه ، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه وقبل مكثها في صدره" انظر: الجاحظ ، **رسائل الجاحظ** ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، ط1 ، 1979 مكتبة الخانجي ، مصر ، ص: 29-30).

والألفاظ السهلة والعبارات المتماسكة التي تبتعد عن التعقيد وتنأى عن جفاف القواعد المنطقية، ومن أمثلة السهولة والوضوح التي نجدها في هذه المنظومة قوله في باب النعت:

النّعتُ للمنعوتِ في رَفْعٍ وفي

نَصْبٍ وخَفْضٍ تابِعٌ حيثُ يَفِي

كذاك في تعريفٍ أو تنكيرٍ أو

تأنيثٍ إفرادٍ وجمْعٍ قدْ حَكَوْا

كذاك في تثنيةٍ تقولُ

جاءَ شفيعُنا النّبي الرّسولُ

أُلازمُ الرِّضَى الكبيرَ أبدَا

بخدمةِ الحبِّ الخليلِ أحمدَا

فنلاحظ من خلال الأبيات السابقة الوضوح والسهولة في تقرير هذا الباب، إضافة إلى المسحة الأدبية وبراعة الصياغة واجتناب الحشو الذي لا فائدة من ورائه.

- الاعتماد على التركيز والإيجاز؛ فقد راعى الشيخ في عرض القواعد المبتدئ والمنتهي، فسردها مُيسّرة مُوضّحة، مُبسطة مُنقّحة، مع تبني أصحّ الآراء وأقواها، والتغاضي عن الآراء المُتشَعِّبة التي تُعقّد، وتغرس في المتعلّم يأسا وقنوطا (انظر تياو، 2009، 20). انطلاقا من هذا المنظور يتبين لنا أن المؤلف قد التزم في منظومته مبدأ التركيز والإيجاز في عرض الموضوعات النحوية، دون أن يخوض في ذكر الخلافات النحوية ولا التطرق إلى المسائل الصرفية؛ لأن سعادة الطلاب إنما صُنفت أصلا للمبتدئين، ومن أمثلة التركيز والإيجاز كلامه على الفعل حيث قال:

والفعلُ يُعرَفُ بقَدْ والسِّينِ

سوْفَ وتا التأنيث بالتَّسْكِينِ

كدخلتْ وخرجتْ وركعتْ

وسجدتْ وكبَّرتْ وسلَّمتْ

فهذه الأبيات التي ذكرناها تبدو مركزة وموجزة وواضحة بعيدة عن الحشو؛ لأن هناك علامات أخرى تقبلها الفعل، ولكنه لم يذكرها؛ لأن هذا المنهج يتناسب مستوى المتعلمين المبتدئين. ومن فائدة أسلوب الحصر أن يساعد المتعلم على فهم وتصور المسألة النحوية جيدا. ويبدو لنا من ناحية تربوية أن الاختصار في عرض القضايا النحوية والقواعد والأمثلة مع الإيجاز في حجم المنظومة النحوية، يُعد الوسيلة المثلى في سبيل نجاح العمليّة التعليمية.

- الاعتماد على الأسلوب التعليمي والتقسيم المنهجي؛ فالقارئ لسعادة الطلاب يلاحظ أن الناظم اعتمد أسلوبا تعليميا مفيدا قوامه التقسيم المنهجي؛ مما يسهل على المبتدئين استيعاب المسائل النحوية في يسر وسهولة ومن أمثلة ذلك قوله في باب المعربات:

المُعْرَباتُ قد أتتْ قسمين

بالشَّكلِ أو بالحرْفِ دون مَيْنِ

فنلاحظ في هذا البيت أن الناظم اعتمد التقسيم المنطقي؛ فقد قسم المعربات إلى قسمين: الإعراب بالحركات، والإعراب بالحروف، حيث أورد تعريفهما بذكر أنواع كل منها مع ذكر أمثلة لكل قسم في الأبيات المتتالية للبيت السابق[293].

- التمثيل في سعادة الطلاب:يغلب فيها الطابع الأدبي وكثرة التمثيل، وإن القارئ لهذه المنظومة يدرك تماما أن قدرة الناظم الأدبية قد أعطته ذوقا فنيا عند

([293]) يعني أن الناظم بين في الأبيات اللاحقة أن المعربات بالحركات ترتكز على أربعة أنواع، وهي: مفرد، جمع تكسير، جمع مؤنث سالم، الفعل المضارع الصحيح الآخر. وكذلك توزع المعربات بالحروف إلى أربعة أنواع، وهي: مثنى، جمع مذكر سالم، الأسماء الخمسة، الأفعال الخمسة.

صياغته لها ، فهي سهلة العبارة ، جيدة الأسلوب ، متناسقة الترتيب ، عذبة الألفاظ ، واضحة المعاني ، متداولة الأمثلة ، بينة الشواهد ، بلا تكلف ، ولا تعقيد ، ولا إلغاز. وفيما يلي أمثلة تبين مزج صاحب المنظومة بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية.

قوله في باب المبتدإ والخبر:

وعَنْهُمُ الخبرُ جَا قِسْمَيْنِ

أيْ مفردًا والعكسَ دون مَيْنِ

مفردُه نحوُ أَبِي فقيهُ

ونحن غُرٌّ وأَخِي نَبيهُ

وغيرُه أربعةُ الأشياء

مجرُورُه كالخَيْرُ في القَضاءِ

والظّرْفُ نحوُ الخيرُ عند المصطفى

والفعل معْ فاعله كُنْ ذا اقْتِفآ

تقولُ أختي جاء زوجُها عُمرْ

رابعُها مبتدأٌ مع الخبرْ

نحوُ أبي روضتُه مُنوَّرَهْ

ونحوُ أمِّي حالُها مشتهِرَهْ

نلاحظ من خلال ما سبق ذكره أن المؤلف أورد تعريف الخبر بتقسيمه إلى قسمين: مفرد وغير مفرد ، دون أن يأتي بالتعريف المنطقي الفلسفي ، وقسم غير مفرد إلى أربعة أنواع: جملة فعلية ، جملة اسمية ، ظرف ، جار ومجرور (شبه جملة) ، ثم دعمها بذكر الأمثلة بأسلوب بديع حتى تتضح القاعدة في ذهن المتعلم ، وتمتاز الأمثلة التي يسوقها المؤلف بالابتعاد عن الجافة المصطنعة ، والتي لا تخرج عن: ضرب زيدُ عمرا ، وإنما نجده يكثر من الأمثلة الحيّة الهادفة ، والأبيات السابقة توضح طبيعة الأمثلة التي اعتمدها المؤلف.

نلاحظ من خلال الأمثلة في سعادة الطلاب أن مؤلفها الشيخ أحمد الخديم عمد إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا ، رام من خلالها تثبيت بعض القيم الطيبة والصفات الحميدة في نفوس المتعلمين والطلاب ، فنجد فيها توجيهات وإرشادات خُلُقيَّة منبثقة من التوجيه الديني الإسلامي ، "معتمدا في اختياره الأمثلة منهج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والناصح للأمة ، فانتقى بذلك أمثلة واقعية مرتبطة بماضي أمة النبي محمد ﷺ وآثار السلف الصالح؛ لما تحتوي من حقائق وقيم سامية...(اتياو ، نفس السابق). والأمثلة في هذا النمط كثيرة ، منها قوله:

كَنَقِّ فاكَ[294] مرِّ أباكَ وأخاكْ

إن كُنْتَ ذا مالٍ كثيرٍ وحماكَ

وقوله:

ولن تنالا رُشدًا أو تَفْطِما

نفسَيْكما عن اللّغَى فالْتَفْطِما

ولن تنالي الدينَ حتى تستري

جسمكِ يا زينبُ بالتَّخمُّرِ

وقوله:

تقولُ إنْ تَرْحَمْ وتَعْفُ وتَجُدْ

تكنْ مُقَدَّمًا وقومَكَ تَسُدْ

ومحصول القول فيما يتعلق بالشيخ ومنظومته أنه كان ذا ثقافة واسعة وأسلوب عربي أدبي سليم وملكة

(294) يعني أن تنظف فاك أيها الطالب بالسواك أو أن تنظفه من آفات اللسان ، كالكذب والغيبة والنميمة...

لسانية كفيلة ، مكنه ذلك على استيعاب النحو العربي بظواهره وقضاياه التركيبية إلى جانب الأمثلة والشواهد المتنوعة الحيّة وصوغها في هيكلة منظومة دون أن يفلت من الوزن أو القافية.

يؤكّد ابن حزم (1987،66) في رسالته "مراتب العلوم" العلاقة الرابطة بين النحو واللغة ، ويرى أن النحو يرتبط ارتباط كليا بالمعاني ، وهذا ما نراه واضحا في منظومة سعادة الطلاب للشيخ؛ إذ نظر إلى اللغة باعتبارها وحدة متكاملة لا يمكن أن تفصل عن النحو؛ لذلك ربط الشيخ النحو بالمعنى ، ومما يبين ذلك حديثه عن تقسيم الأفعال من حيث الزمن إلى ثلاثة أنواع ، فيقول:

ينقسم الفعل إلى أفعالِ

ثلاثةٍ بقول كلِّ تالِ

ماضٍ مضارعٍ وأمرٍ كاتّقِ

ربَّ الوَرَى فقد نجا من يتّقي

يعني أن الناظم انقسم الأفعال إلى ثلاثة أضرب: ضرب منها أفعال ماضية قد ذهبت وتقضّت ، كقولك: كتَب وعلِم. والضرب الثاني: أفعال مستقبلة ، منتظرة لم تقع بعد أو واقعة في الوقت الذي أنت فيه لم تمض ولمّا تمض بعد ، كقولك: يصلي ويأكل. والضرب الثالث أفعال أمر: الدالة على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب ، كقولك: تعلّمْ واجتهدْ. وهذا التقسيم يبين طبيعة الناظم من حيث ربط المصطلحات النحوية بدلالاتها في المعنى.

ما يميز كتاب سعادة الطلاب هو ابتعاده عن التعريفات المنطقية التي تشتت ذهن المتعلم المبتدئ ، فهو يهتم بذكر الأمثلة التي تسهم في تكوين المعرفة للمتعلم عن طريق توضيح القاعدة النحوية. وقد سلك هذا المنهج في معظم أبواب الكتاب كما سبق ذكره في باب الأفعال ، حيث مثّل أنماط الفعل الثلاثة بجملة: **(اتق رب الورى فقد نجا من يتقي)** فاتّقِ: فعل أمر ونجا: فعل ماض ويتقي: فعل مضارع. كما نرى نفس ذلك في تمثيله لأحرف المضارعة ، أجمله في فعل "نأيتُ" بقوله:

أربعةٌ يجمعُها في القيد

نَأَيْتُ عن إبليسَ جَمٍّ الكَيْدِ

فحرص على عدم الفصل بين النحو واللغة ، ونظر إلى قواعد اللغة من حيث ارتباطها بالمعنى. ولذلك فقد عني بإيراد الأمثلة الكثيرة السهلة الاستعمال محاولا تقويم التراكيب اللغوية. وهكذا فنحن نستطيع أن نقول إن الشيخ في منظومته سعادة الطلاب كان ينتهج منهجا عمليا تطبيقيا غرضه تقويم اللغة المستعملة ، سواء في التعبير الكتابي أو الشفوي ، دون أن يثقل ذهن المتعلم بكثير من القواعد النحوية.

وقد رام الناظم من خلال منظومته توضيح النحو في ذهن المتعلّم؛ لذا عنون كتابه باسم ينطبق على مسماه ، فاتسم أسلوبه بالوضوح في المعنى ، وعدم التعقيد في المبنى؛ مما أدّى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين. كما أنه يمكننا أن نُبدي قراءة في المحتوى النحوي وترتيبه لسعادة الطلاب ، أما بخصوص ما يتعلق بالمحتوى النحوي فإن منظومة سعادة الطلاب تتميز بالشمول والاختصار؛ إذ شملت معظم الأبواب النحوية التي يحتاجها المتعلّم غير المتخصص ، مع اختصارها للقواعد النحوية ، وذلك بخلوها من التعريفات غالبا ، وبعض الأبواب المعروفة في النحو التعليمي مثل (ما ، لات ، إنّ المشبهات بليس ، الاختصاص ، التحذير ، الإغراء ، أسماء الأفعال...). ويبدو أن المؤلف كان على إدراك وعلى وعي بإهمال هذه الموضوعات؛ فربما رأى أن عرضها في المنظومة لا يتناسب مع المستوى

الذي أُلّف الكتاب من أجله. وهذا الاقتصار على الموضوعات الأساسية له فائدة تعليمية تتمثل في عدم تشتيت ذهن المتعلم بكثرة القضايا النحوية التي يتعلمها.

وأما فيما يتعلق بترتيب المحتوى، فقد بنى الشيخ منظومته على نمط المعمولات التي هي أثر للعامل، فقام بجمع الأشياء المتشابهة تحت موضوع واحد، ويبدو أن هذا الترتيب الذي سلكه الناظم في منظومته، يُعد من قبيل التعليم المناسب لفكر المتعلم؛ لما يتسم به هذا الترتيب من جمع للمسائل المتشابهة في أبواب "وهذه النظرة القائمة على محور المعمولات كانت نظرة تعليمية مناسبة للفكر، لما فيها من ترابط بين المسائل في الأبواب، وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهني وعلى التذكر أيضا" (انظر ممدوح، 2000، 265).

على ضوء ما سبق ذكره من ملاحظات على مستوى المبنى والمعنى لهذه المنظومة النحوية؛ فإن أقصى ما يمكن أن توصف به منظومة سعادة الطلاب هو أنها نحو يلائم المتعلمين والمتخصصين أيضا، كما أنها تعد -عموما- وسيلة ناجحة في ميدان التعليم، فهي تعبر عن مدى تمكُّنِ صاحبها من النظم وقدرته على جودة الأداء وإثبات كفاءته في مجال تعليم النحو.

5- المصطلحات النحوية المستعملة

نجد المؤلف يطلق على بعض المسائل المعروفة مصطلحات أخرى، ومن ذلك :إطلاقه على المفعول المطلق مصطلح "المصدر"، وإطلاقه على المفعول فيه مصطلح "ظرفي الزمان والمكان" وإطلاق قضية (لا) فقط، دون أن يضيف "النافية للجنس". إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن مفهوم حروف الجر عنده واسع فيشمل إضافة إلى حروف الجر الظروفَ والأسماءَ التي ليست بحروف ولا ظروف.

هذا وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفي في تقعيده فنظر إلى الوظيفة النحوية، ولم ينظر إلى العمل النحوي فقط، حيث اعتبر كثيرا من الظروف والأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف من جملة عوامل الجر. فقد ذكر من الظروف مصطلحات (أمام، خلف، مع، وراء، قُدَّام، فوق، تحت، تلقاء، عند، إزاء، حذاء، ثَمَّ). ومما ذكره من الأسماء التي ليست بحروف ولا ظروف: (غير، سِوى، سُوى). فالمؤلف ذكر هذه الظروف والأسماء التي ليست بظروف ولا حروف "لأن هذه المصطلحات تؤدّي نفس الوظيفة التي تؤديها حروف الخفض (الجر) مثل قولنا: الكتاب على الطاولة أو الكتاب فوق الطاولة" (انظر حلمى، 1995، 53).

لا نجد في منظومة سعادة الطلاب بعض المصطلحات النحوية الشائعة عند المحدثين مثل: العلامات الأصلية والعلامات الفرعية فعدم ذكر الناظم لهذه المصطلحات كان بسبب النظم الذي اضطره إلى ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله في باب علامات الإعراب:

لِلرَّفعِ دالٌ من علاماتٍ وفَتْ
ضمٌّ وَوَاوٌ ألِفٌ نُونٌ ثَبَتْ
لِلنَّصْبِ هَاءٌ من العلاماتِ انْمِيَا
أي فتحَةً وألِفًا كَسْرًا ويَا
خَمّسْ بحذفِ النُّونِ أمّا الْفَتْحُ
فَبَانَ في جِيمٍ أتَاكَ فَتْحُ
واعْدُدْ عَلامَاتٍ ثَلاثًا يا فَتَى
لِلْخَفْضِ وَهْيَ كَسْرَةٌ ياءٌ أَتَى
وفَتْحَةٌ والكُلُّ منها خُصِّصَتْ
بموضعٍ عن غيرها وانفَرَدتْ

أمَا السّكُونُ فعَلاَمَةً يكونْ

لِلجَزْمِ في فِعْلٍ مُضارِعًا يبينْ

والحَذْفُ في الْمُعْتَلِّ ءاخِرًا يكُونْ

علامةً للجزْمِ عند المُفْلِقينْ

فقد استعمل الشيخ في هذه الأبيات مصطلح "علامات" ويقصد بها العلامات الإعرابية التي تخص بالرفع والنصب والخفض والجزم. ويمكننا تقسيمها إلى العلامات الأصلية وهي: الضمة ، الفتحة ، الكسرة ، السكون والعلامات الفرعية وهي: الألف ، الواو ، النون ، الكسرة الياء ، الحذف[295].

فنلاحظ من خلال البيت الرابع غياب المصطلح المألوف في كتب النحو وهو "الجر" وقد ذكر الناظم مصطلح "الخفض" وهو مصطلح شائع استعمله كثير من النحاة القدماء والسبب في غيابه؛ هو عدم سماح النظم بظهوره. مما نستنتجه أيضا من خلال الأبيات السابقة حضور التعريف البنيوي الشكلي في التعريفات ، وقد لجأ الناظم إلى هذا النوع من التعريف كثيرا في منظومته.

الخاتمة

لقد أسفرت القراءة التحليلية لمنظومة سعادة الطلاب للمؤلف الشيخ أحمد الخديم عن أبرز الأبعاد اللسانية التربوية لها؛ فقد امتازت بالوضوح في المعنى وعدم التعقيد في المبنى ، والسهولة في عرض المادة النحوية على المتعلِّم؛ مما أدّى إلى تحقيق الهدف من تأليفه وهو تقريب النحو من المتعلمين في طابع مخفف ، ويمكن إبراز أهم نتائج هذه الدراسة والتي تتعلق بالمنهج اللساني التربوي الذي سلكه المؤلف في منظومته ما يلي:

- تبنيه للطريقة الاستقرائية في عرض المادة النحوية على المتعلم.

- تبنيه للمنهج الوصفي في عرض أبواب النحو وابتعاده عن التعليل والتفسير.

- طريقته في التحليل والإعراب حيث ابتعد عن الإعراب الصناعي وركز على العرض الوظيفي للعناصر النحوية.

- طبيعة حدوده وتعريفاته؛ فقد لجأ إلى التعريف بالمثال الوظيفي والبنيوي الذي يعتمد على الوصف وكثرة التمثيل ، وابتعد عن التعريف المنطقي.

إضافة إلى ذلك ، فقد امتازت المنظومة بكثير من المبادئ اللسانية التربوية؛ منها اكتفاء الشيخ بالأسس والقواعد النحوية العامة مراعاة لمستوى المتعلمين ، وابتعاده عن التفصيلات والخلافات النحوية التي من شأنها أن تُشتِّت ذهن المتعلم بذكر القضايا النحوية التي لا تتناسب مع مداركه العقلية ، إضافة إلى ترتيبه

([295])ومما سلكه المؤلف في منظومته تيسيرا على المتعلمين ، أنه لايفصل في ذكر علامات الإعراب ، كما اتضح ذلك في الأبيات أعلاه ، حيث يكتفي المؤلف بذكر العلامات الأصلية للإعراب ، فلا تو جد في منظوره علامات فرعية أصلا ، فالعلامات كلها أصول؛ فيجعل **الواو** علامة للرفع في الأسماء الخمسة ، وجمع المذكر السالم ، **والألف** علامة للرفع في المثنى ، **والنون** علامة للرفع في الأفعال الخمسة ، **والياء** علامة للجر في الأسماء الخمسة ، وجمع المذكر السالم ، **والألف** علامة للنصب في الأسماء الخمسة ، **والياء** علامة للنصب في المثنى وجمع المذكر السالم ، **والكسرة** علامة للنصب نيابة عن الفتحة في جمع المؤنث السالم ، **وحذف النون**علامة للنصب أو الجزم في الأفعال الخمسة إذا دخلت عليها عوامل النصب أوالجزم. وقد أعطى الناظم أمثلة في ذلك بقوله:

ولم يزالوا يطلبون رُشدا ★★★ فلا تزالوا تطلبون مَجْدَا

ولن تنالي الدينَ حتى تستري ★★★ جسمكِ يازينبُ بالتَّخمُّرِ

وحذف عرف العلة علامة للجزم في الفعل المضارع المعتل الآخر ،وقد مثل ذلك الناظم في البيت التالي:

تقولُ لمْ أَسْهُ ولمْ أَنْسَ ولمْ ★★★ أَعْصِ إلاَهِيَ تعالى باللَّمَمْ

لمحتوى منظومته على نمط المعلومات التي هي أثر للعامل ، واتباعه لمنهج الإجمال ثم التفصيل في عرض القواعد النحوية ، وإهماله لبعض أبواب النحو مراعاة لمستوى المتعلمين ، واعتماده مبدأ الإحالة إلى قواعد وأحكام سابقة. وإكثاره من الأمثلة التي توضح القاعدة للمتعلم. ومن منهج الناظم في منظومته الاعتماد على الاختصار والإيجاز ، وأيضا مزجه بين الطابع الأدبي والتمثيل في تقرير المسائل النحوية ، وقد عمد الشيخ في منظومته إلى توظيف الأمثلة توظيفا تربويا... والحاصل أن منظومة سعادة الطلاب تحتوي على جملة من الأبعاد اللسانية التربوية ، وهي مفيدة في العملية التعليمية ، إذا ما أحسن القائمون على مناهج النحو استثمارها في بناء المناهج النحوية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جني ، أبو الفتح عثمان (1954) المنصف شرح تصريف المازني. ج1 ، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، وزارة المعارف ، ط1 ، مصر.
- ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد (1987) رسائل ابن حزم الأندلسي ، رسالة مراتب العلوم. ج4 ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت.
- امباكي ، الشيخ أحمد بمبا ، سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب. مكتبة الشيخ أحمد بمبا ، طوبى دار القدوس ، سنغال.
- تياو ، أبو مدين شعيب (2009) فتح الوهاب في شرح سعادة الطلاب. مطبعة المعارف الجديدة ، الطبعة الأولى ، الرباط.
- الجاحظ ، عمروبن بحر (1964) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، ط1 ، مكتبة الخانجي ، مصر.
- حلمى ، خليل (1995) العربية وعلم اللغة البنيوي ، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر.
- الراجحي ، عبده (1995) علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.
- صالح ، عبد الرحمان الحاج (1974) أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية ، مجلة اللسانيات ، العدد الرابع ، معهد العلوم اللسانية والصوتية ، الجزائر.
- ممدوح ، عبد الرحمان (2000) المنظومة النحوية دراسة تحليلية. درا المعرفة الجامعية ، القاهرة ، مصر.